

التعبير الإبداعي بين تداعيات الخمر ونرجسية البطولة والفخر في شعر أبي محجن الثقفي ديلم كاظم * ملاذ ناطق **

تأريخ التقديم: 2019/2/25

تأريخ القبول: 2019/5/26

المستخلص:

عندما يأخذ الشاعر بزمام الإبداع، ليصنع منه حلية تعبيرية ساطعة في بناء نص، يكون قد خرق المألوف وجاء بالمنشود البعيد المنال؛ ليحقق بذلك غاية الجمال والجودة.

ولعل أبا محجن الثقفي هو شاعرنا المنشود الذي سار على جادة الإبداع، فصاح صوته مؤثراً في محيط قلق، شهد تصادم حاد من أجل الوجود، وتعزيز المبادئ الحقة التي أكد عليها الإسلام.

كل ذلك دفع بنا نحو تذوق فنه وسبر أغوار صنعته، وتسليط الضوء على معايير الإبداعية في بناء نصه لتبيان طبيعتها ومقوماتها، فشكل عمله تركيباً فنياً ذا خصوصية برزت واتضحت بصورة أشمل كونه رجل وفارس شاب سلوكه منحى يؤثم عليه الدين الاسلامي الحنيف، ويعاقب عليه القضاء الإسلامي في زمانه.

فكان شاعرنا باب معطاء للفروسية والفداء من أجل الدين والأرض والعرض، وفي الوقت نفسه كان مثار جدل لسلوكه المنافي للدين الاسلامي وتعاليمه السمحاء، وقد جسد شعره ناحيتي حياته تجسيدا حياً مميّزاً فكان لزاماً علينا تصفح ديوانه ودراسة حيثياته لأنه مثل بصمة مميزة، ومفارقة أدبية عملاقة في ساحة الشعر العربي الكبيرة.

الكلمات المفتاحية : عشق؛ لطيف؛ إحساس

نسبه:

* أستاذ مساعد / جامعة بغداد .
** أستاذ مساعد / جامعة النهدين .

هو أبو محجن بن حبيب بن عمرو بن عمير من بني عَقْدَة ابن عَنَزَة بن عوف بن ثقيف. وكان شاعراً شريفاً، قد فَضَّلَت أبياته القافية على كل شعر قيل في معناها⁽¹⁾.

المعالجة:-

لقد جاءت المعالجة في ثلاثة محاور رئيسة وضح كل محور منها ناحية معينة من حياة الشاعر ونشاطه الإنساني، من خلال آليته الشعرية المميزة، وهي:-
اولاً: التجسيد الإبداعي في شعر البطولة والفخر.

الوقوف على شعر البطولة والفخر عند أبي محجن الثقفي يفتح احتمالات متعددة تقيد بها العلاقات الشكلية بين الأبعاد الدلالية والتداولية المؤطرة بظاهرة خطابية تواصلية ملفتة للإحساس ومحفزة للفكر، وموجهة المتلقي نحو الوقوف والبحث في حيثيات هذه النصوص للتعرف على الأشكال التعبيرية وسياقاته في نسج الألفاظ داخل الإطار الإيقاعي المعروف للشعر، خاصة و"إنه واقع تحت تأثير المتغير الشخصي كما يراه البعض - شرب الخمر - في عملية اتخاذ القرارات البطولية وتجسيدها عملياً على أرض الواقع، ومن ثم صنع الخطاب الشعري ضمن مفهوم تشكيلي معماري مميز ووفق قيمة معيارية عالية.

لذا جاء بحثنا في سبر أغوار هذا الغرض الشعري عند أبي محجن الثقفي، إذ قال مخاطباً امرأته:-

لا تسألني الناس عن مالي وكثرته وسألني القوم عن ديني وعنْ خُلُقِي⁽²⁾

لم يغادر الشاعر التقليد المعروف في بناء مطلع القصيدة العربية، إذ نجده يخاطب امرأته، ليخبر العالم من خلالها كيف هو دينه وخلقه.

ويواصل نظمه قائلاً:-

(1) ديوان أبي محجن الثقفي، صنعه أبي هلال الحسن بن عبد الله العسكري، نشره وقدم له: الدكتور

صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى - 1970م، ص15.

(2) ديوان أبي محجن الثقفي، ص15.

قد يعلمُ الناسُ أنا من سرّاتهمُ إذا سما بصراً الرّعيديّة الفرقي⁽¹⁾
يؤكد الشاعر إنهم من أختيار الناس وساداتهم، فهم الثابتون في الحروب
المدافعون عن الأرض والعرض، في يوم يفزع فيه الناس، وخاصة الجبان منهم الرعيدي،
ونراه أضاف حرف الهاء الى نهاية اللفظة للمبالغة وإمعاناً لجبن الجبان. الذي يشخص
بصره يوم الوقية.

وقال ايضاً:

أعطي السنان غداة الزوع غنلتُهُ وعامل الرُمح أرويه من العلق⁽²⁾
النخلة العطية وفي العرق تقليد كريم، إذ يعطي رجلٌ رجلاً ناقة ينتفع بمنافعها ثم
يعيدها الى صاحبها. فكان عطاء أبي محجن للسنان من هذا التقليد، إذ أعطاه وأرواه من
العلق، وهو كثرة الدم العالق في فم الجرح.

وقال أيضاً:

وأطعنُ الطعنة النجلاء عن عرضٍ تنفي المسابير بالإزباد والفهقي⁽³⁾
يخبرنا الشاعر كيف إنه يتحين الفرصة ليختلس طعنة الى ناحية خصمه -
وتحين الفرصة لأخذ ناحية مناسبة محمودة عند العرب - فتكون طعنته واسعة كثيرة
النزف، غزيرة الدم، لا يعرف غورها إلا المتمرس المجيد في القتال، وتسمى عند ذلك
بالنجلاء.

ونتابع قوله أيضاً:-

عَفُ الإياسة عما لسْتُ نائله وإن ظلمتُ شديد الحقدِ والحنقي⁽⁴⁾
يخبر الشاعر عن صفاته التي عُرف بها، فهو عفيف اليد والقلب، راجح العقل،
لا يطمع في شيءٍ لا يمكنه الحصول عليه، وهذا لا يشعره باليأس أو التذمر من قدره
ونصيبه في الحياة إزاء عجزه عن الحصول على أمانيه.

(1) ديوان أبي محجن الثقفي، ص16.

(2) المصدر السابق نفسه، ص17.

(3) ديوان أبي محجن الثقفي، ص18.

(4) المصدر السابق نفسه، ص19.

وقال أيضاً:

وأَكشِفُ المَأزِقَ المَكروبَ عُمَّتُهُ وأَكْتُمُ السِّرَّ فيه ضربةُ العُنُقِ⁽¹⁾

هو الفارسُ الذي حضوره يكشف كروب المعارك ويزيل الغم والهَمَّ عن ناسه في شداتهم
ومأزقهم، فهو رجل الملمات والشدائد تشهدُ له بذلك الوقائع والواقع.
ثم يردفُ قائلاً:

قد يَقتَرُ المرءُ يوماً وهو ذو حَسَبٍ وقد يثوب سواهُ العاجز الحمق
قد يكثرُ المالُ يوماً بعد قَلتِه ويكتسي العود بعد الجذب بالورق
وقد أجود وما مالي بذِي فَنعٍ وقد أكرُّ وراء المحجرِ البرقِ⁽²⁾

في الأبيات المتقدمة يُعطي الشاعر صورة لحياة الناس الحقيقية وتقلبات الدهر
فيهم. فقد يُعدم المال أو يقل عند رجلٍ كان ابن عز وجاه، ويكثر في يد الفقير الأحمق
الذي لا يعرف قيمة ما في يده.

وقد يكون المرءُ كريماً جواداً، لكنه لا يملك ما لا يُذكر، والجود كما يراه الشاعر
لا يقتصر على المال والإنفاق، وإنما حقيقة الجود بالنفس وقت المعارك والشدائد التي
تشخص فيها الأبصار ويحار عندها الرجال، حيث ضيق الواقع والصدر والخطر المُحدق
من كل جانب، فإذا بالجواد الكريم يقود المعارك، ويأتي بالنصر، وينقذ الأرض والأهل.
هذه الأبيات تجسد مفارقة حياتية قدرية حقيقية لواقع الناس وحياتهم في كل
عصر وزمان، وقد أجاد الشاعر في إبرازها لأمعةً ساطعة مدوية.
وختم قائلاً:

وأهجرُ الفعلَ ذا حُوبٍ ومنقصِةٍ وأتركُ القولَ يُدنيني الرهقِ⁽³⁾

(1) ديوان أبي محجن الثقفي ، ص19.

(2) المصدر السابق نفسه، ص20- 21.

(3) المصدر السابق نفسه، ص22.

يخبرنا الشاعر إنه ينفر من كل فعل قد يأتي بالإثم والنقيصة وسوء السيرة، وكل قول يصدر عني قد أوصف بسببه بالحمق وخبث الطبيعة، ويقريني من كل ما ترفضه السجية الانسانية السليمة، والعادات العربية الأصيلة.

هذا هو أبي محجن الثقفي كما يصف نفسه، وتؤكد المصادر انه صادق القول والفعل.

ولعل وجود مثل هذا النص الذي يتصف بالجودة والأصالة والتألق وعمق المروءات والشهامة العربية في ديوان شاعرٍ عُرف عنه تعاطي الخمر والمجون يجعله مثار بحث وتساؤل، فهو نص يؤهله ليكون شاعراً فحلاً مميزاً، بل إنه أشعر الناس. وما ذكرته المصادر عن الخليفة عمر بن الخطاب (رض) يؤكد ما تقدم من قولنا، إذ انه (رض) كان "يفضل هذه الأبيات وتهيم رأيه فيها فلا يذكر ذلك، إلى أن قال لعلّي (كرم الله وجهه): من أشعر الناس؟ قال: الذي أحسن الوصف، وأحكم الرصف، وقال الحق. قال: ومن هو؟ قال: أبو محجن في قوله: "لا تسألني الناس عن مالي وكثرتي"⁽¹⁾. قال: أيدنتي يا أبا الحسن أيدك الله. فمازلت مؤيداً في كل خير. وهذا أول ما قيل أيدك الله. ثم قال له: قد صدق في كل ما ذكر، لولا أفة كانت في دينه من حبه الخمر، ولقد تركها آنفاً، والأنف من الكرم، والكرام من الإيمان، لقوله تعالى: {إن أكرمكم عند الله أتقاكم}⁽²⁾، فقال عمر رضي الله عنه: يا أبا الله يا بني هاشم إلا أن يسودكم في الدين والدنيا"⁽³⁾.

مما تقدم يؤكد التجسيد الفعلي للإبداع الشعري في نص شاعرنا المميز، الذي قال عنه الشعبي: "فلم يكن في الحي فتى لا يحفظ هذه الأبيات فتعدُّ له مروءة".

لذا من السليم جداً نرى اندفاع العقل البشري الصحيح والفطرة النقية في أثر هذا النص لما جسده من قدرة على إثارة الأحاسيس والعواطف وتحريك القلوب عن مواضعها، فألفاظها تتميز بخصوصيتها وجمالية وقعها في الأسماع، كما إن طرائق تعالق ألفاظها،

(1) ديوان أبي محجن الثقفي ، ص22.

(2) سورة الحجرات: آية 13.

(3) ديوان ابي محجن الثقفي: ص22.

واتساق اجراس حروفها في الأذان، جعل منها ألفاظاً معبرَةً عن وظائفها ومقاصدها حاضنة المكون النحوي التركيبي، والمكون البلاغي الدلالي في الوقت نفسه.

لذا فهو عن جدارة نص يمثل وعاء المروءة العربية الأصيلة والفكر الإسلامي النقي، كما إنه نص يلبي حاجات المجتمع العربي الإسلامي في زمانه وفي كل زمان. وهذه المروءات هي هويتنا كما هي لغتنا.

فالنص تتجدد فيه وظيفة الدلالة عند القراءة المتكررة، لأنها وظيفة حاجوية اجتماعية قد تتخذ مساراً تكاملياً في مفهوم دلالة معينة أخلاقية عربية أصيلة، تتواصل مع الحياة وسلوكيات الإنسان، فهو نص مفتوح على المدرك الأخلاقي العربي، والمدرك الأخلاقي الإسلامي وعلاقتها مع الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية، ويجسد جدلية العلاقة بين الدين وما وجد بالفعل على أرض العرب من سلوكيات وأخلاقيات قبل الإسلام⁽¹⁾.

وجاء في الأغاني إن عمر بن الخطاب (رض) نغم عليه شربه الخمر، فسيّره الى حَصَوُضِي، وهي جزيرة في البحر، وبعث معه ابن جهراء، فراغ منه على شط البحر ولحق بسعد بن أبي وقاص. وقال حينها:

الْحَمْدُ لِلَّهِ نَجَّانِي وَخَلَّصَنِي مِنْ ابْنِ جَهْرَاءَ وَالْبُوصِيَّ قَدْ حَبَسَا
مَنْ يَرْكَبُ الْبَحْرَ وَالْبُوصِيَّ⁽²⁾ مَعْتَرِضاً
أَبْلِغْ لَدَيْكَ أَبَا حَفْصٍ مُغْلَغَلَةً
إِلَى حَصَوُضِي فَبَيْتِ الصَّاحِبِ النَّمَسَا
عَبَدَ الْإِلَهِ إِذَا مَا غَارَ أَوْ جَلَسَا⁽³⁾

إني أكرُّ على الأولي إذا فزعوا
يوماً واحسبُ تحت الراية الفرسا
أغشى الصياح وتغشاني مضاعفهُ
من الحديد إذا ما بعضُهم خنسا⁽⁴⁾

(1) الأغاني: ج14، ص289.

(2) البوصري: المركب، وهي لفظة فارسية معرّبة.

(3) ديوان ابي محجن الثقفي: ص24.

(4) المصدر السابق نفسه، ص26.

في الأبيات الثلاثة الأولى يُعرف الشاعر بحالته في رحلة النفي التي أمر بها عمر بن الخطاب (رض)، ثم ينتقل لوصف حاله يوم الوقعة وكزة على الأعداء مهما كانت ضراوة الحرب، هو في مقدمة كتيبة الفرسان التي تضم نخبة الرجال المقاتلين، فإذا فرغ الناس يوم اللقاء، تبقى الراية تحت وصايته مرفوعة خفاقة؛ لفروسيته ومقدرته في الحرب وإقتداره في منازل الفرسان.

يؤثر في صياح العركة وهياجها، ويتلبس ذلك الصياح المخيف لشجاعته وقد ارتدى درعاً صنعت حلقاته بصورة مزدوجة زيادة في المتانة وجودة الصنع، ويخوض الوقعة التي يتأخر الناس عن خوضها؛ لبسالته.

تسمع في كلماته صوت الإرادة، الفردية، صوت الثبات في المعارك والانتماء الى حالة الفروسية المطلقة، وهو نقيض الباطل، ونرى الشاعر الفارس ينتمي لمجموعة قواعد ملزمة، تنظم سلوكه وحياته وتُعيد ترتيب علاقاته مع السلطة والناس بطريقته الخاصة. حتى لو استدعى الأمر عصيان أوامر السلطة.

وعندما تواقع القوم في القادسية، وكان أبو محجن في محبسه، نظر الى حالة الناس، وقد أشرفوا على الهزيمة، فقال:-

كَفَى حَزْنًا أَنْ تُطْعَنَ الْخَيْلُ بِالْقَنَا
إِذَا قُمْتَ عَنَّا بِي الْحَدِيدِ وَأُغْلِقْتَ
وَقَدْ كُنْتُ ذَا مَالٍ كَثِيرَةٍ وَإِخْوَةٍ
فِي أَنْ مِتُّ كَانَتْ حَاجَةً قَدْ قَضَيْتُهَا
وَأَصْبَحُ مَشْدُودًا عَلَيَّ وَتَأْقِيَا
مِصَارِعُ مِنْ دُونِي تُصِمُّ الْمُتَأْدِيَا
فَأَصْبَحْتُ مِنْهُمْ وَاحِدًا لَا أَخَا لِيَا
وَحَلَقْتُ سَعْدًا وَحَدَهُ وَالْأَمَاتِيَا (1)

يصفُ الشاعر لحظات لا يستطيع لمسها بطريقته التي تنم عن الفروسية والبسالة، ولا يستطيع العيش بداخلها مدة أطول مما عاشها، لأن المعركة هي المكان الوحيد القادر على إحياء وجوده بنضارة وجمالية لا نجدها عند أحد غيره.

تلك اللحظات الموصوفة في مقطعه المتقدمة الذكر تشع بفيضٍ من الأحزان والآمال، لدرجة نُعمي قلوبنا بفعل جنون الإحساس الذي يُؤطرها، فهو في كمين - محبس

(1) ديوان ابي محجن الثقفي: ص37، 38.

- منعه من ملء صخب المعركة بلمسته المعهودة، التي تُطيح برؤوس الأعداء، وتكتم أنفاس الأصدقاء، هنا تكمن كاريثته في اللاوعي والوعي في آنٍ واحد.
شاعر أقدامه راسخة في أرض المعركة وإن كان في الحبس، وذلك لتطرفه وفردانيته في خوض المعركة، والشعور بها، وإن لم يكن فيها، والخروج عنها إن خاضها منتصراً مفتخراً بأرومته وعقيدته.

ويالكمية الغرابة التي تصطدم بها، عند كل لحظة شعورية شعرية مرتدة عن منسوبها العاطفي العالي، وكمية الوجد الذي يغمرنا في كل لفظة نقرأها، فالنص وما ينبعث عنه من مشاعر فياضة وأحزان مريرة تتحدث بصوتٍ عالٍ عن شهامة هذا الفارس ومروءته تجاه قضايا أمته ومصيرها الذي كان على المحك في هذه الأثناء.
ونختم مجتثاً هذا بمقطعة تفيض شجاعة وشهامة، وهي تشع إجابة وسحراً، ففيها إطلالة كلاسيكية راقية وفخمة من الفخر والجد، تتحدث عن نفسها، وتحفر بألفاظها مكلاناً في الأسماع والقلوب.

قال الشاعر:

لما رأينا خيلاً محجلاً
ظرننا إليهم بكل ساهبة
وكل عراصة مثقفة
وكل عضب في متنه أثر
وكل فضفاضة مضاعفة
لما التقينا مات الكلام ودا
فكلنا يستليص صاحبه
إن حملوا لم نرم مواضع
وقوم بغبي في جحفل لجب
وكل صافي الأديم كالذهب
فيها سنن كمشعة الذهب
ومشرفي كالمح ني شطب
من نسج داود غير مؤتشب
ر الموت دور الرحي على القطب
عن نفسه والنفوس في كرب
وإن حملنا جئوا على الركب⁽¹⁾

ثانياً:

(1) ديوان أبي محجن الثقفي: ص 51.

الإبداع الشعري في صناعة الخمرات

كان من المهم أن نعالج البصمة الإبداعية في شعر الخمرات لأبي محجن التقفي، لأنها تمثل ركيزة مهمة من ركائز ديوانه وعمله الإبداعي كما إنه الغرض الذي سُلط الضوء عليه أكثر من غيره، وأثار ضوضاء كبيرة، لدرجة أصبغ الشاعر بصبغة الرجل الذي لا يقوى على مفارقة الخمر، ولا يُجيد إلا القول في الخمر.

والحقيقة يشهد هذا الغرض عند الشاعر بصمة استثنائية تتمثل في لقاء الصورة الإبداعية مع التحفيز لريادة شعر الخمرات في زمن يرفض الخمر ويُجرم من يتعاطاه، فمثل مبادرة رائدة انسجاماً مع خصوصياته الشخصية من ناحية، والانسجام مع الواقع العقائدي المعاش من ناحية أخرى، فجاء بمفارقة اجتماعية واقعية أغنت تجربته الشعرية في هذا المجال، وأدعت وجوده الإبداعي المتألق على الرغم من تحفظ المتحفظين.

وقال في مقطعه التي مثلت مركزية الجدل في شعره بصورة عامة والخمرات

بصورة خاصة:

إذا مُت فادفني إلى أصل كرمةٍ تروي عظامي في التراب عروفاها
ولا تدفني بالفلاة فإنني أخاف إذا ما مُت أن لا أدوقها⁽¹⁾

لا أروع من هكذا تزواج لفظي، أوجد لنا تصوير عشقي، لطيف الإحساس، متين الوصل، بألفاظٍ بسيطة سلسة متداولة، إلا إنها عميقة الغور عند النسج.

فالموت عند الشاعر ليس نهاية العلاقة بينه وبين الخمر، بل إنه وصل دقيق من نوع آخر، فهو بموته قد عاد إلى أصله التراب الذي بدوره يضم جذور الكرمة وأصلها، فهو عاشق لرفقة هذه الكرمة. نافر من الدفن في البرية البعيدة التي لا زرع فيها ولا مصاحبة، بل هي هجر في هجر، وهو لا يقوى على الهجر حتى في مماته.

وقال أيضاً:-

(1) المصدر نفسه: ص48.

أُبَاكِرُهَا عِنْدَ الشَّرُوقِ وَتَارَةً يُعَاجِلُنِي بَعْدَ العِشِيِّ عُبُوقُهَا
وَلِلْكَأْسِ وَالصَّهْبِ حَقٌّ مَنَعِمٍ فَمَنْ حَقَّهَا أَنْ لَا تَضَاعَ حُقُوقُهَا⁽¹⁾

موضعه عند جذور الكرمة وأصلها يمكنه من شرب الخمرة ساعة يشاء غداة أو عشية. لأن لكأس الخمر حق على من يعاقرها ولا يحق له تضييع تلك الحقوق. وقال أيضاً:-

أَقُومُهَا زِقًا بِحَقِّ بَذَاكُمُ يُسَاقُ إِلَيْنَا تَجْرُهَا وَنَسُوقُهَا⁽²⁾
فالإبل التي تحمل زق الخمر، صغيرة السن لا تتجاوز الثلاث سنوات، يسوقها مالكوها إلينا، لأننا كرام معهم ونزيدهم ربحاً. وقال:-

وعندي على شرب العقارِ حَفْظِيَّةٌ إِذَا مَا نِسَاءِ الحَيِّ ضَاقَتْ حُلُوقُهَا
وَأَعْجَلَنْ عَنِ شَدِّ المَآزِرِ وَلَهَا مُفْجَعَةُ الأصْوَاتِ قَدْ جَفَّ رِيْقُهَا
وَأَمْنَعُ جَارَ البَيْتِ مِمَّا يَنْوِبُهُ وَأَكْرِمُ أَضْيَافاً قِرَاهَا طُرُوقُهَا⁽³⁾

وإن شرب شاعر الخمر، لكنه مازال على عاداته العربية الأصيلة فهو المدافع الجسور عن حمى القبيلة والأهل عند الغارة، كما إنه محافظ على عرضه وداره من أي شر قد يتربص به، كريم مضياف مع أضيافه، في أي ساعة جاءوا وإن كان ليلاً. استراتيجية التوازن الدقيقة هذه، تمثل انسجام نفسي عند الشاعر على أرض الواقع، وهي تمثل ناحية معينة من حياته كأنهما قانون عمل أو قانون حياة. وقد تلتبس الأفكار وتختلط، كيف جاء الشاعر بهذا المزيج المتناقض من معاقره الخمر من جهة، والرجولة والشهامة من جهة أخرى، إلا إن الالتفات إلى السياق وخاصة السياق المقامي للألفاظ من ناحية، ومقام الشاعر في قبيلته ومجتمعه من ناحية أخرى.

(1) ديوان أبي محجن الثقفي: ص 49.

(2) المصدر نفسه: ص 49.

(3) المصدر نفسه: ص 49-50.

فالوقوف على الجملة دون تسليط الضوء على الملفوظ من كل زوايا يجعل الدلالة المقصودة منتمة الى الواقع الاجتماعي المعاش والمعاناة النفسية للشاعر أكثر من انتمائه الى النظرية.

فالألفاظ هنا تفتح لنا نوافذ احتمالات متعددة تخضع للمقام الدلالي للفظه مقدماً علاقات شكلية بين الاشارات النصية والبُعد التداولي للفظه المستعملة، فنص الشاعر ملائماً للبعد التواصلية بين الشاعر والمتلقي من ناحية، وبين المتلقي والنص من ناحية أخرى، فكان الدمج الذي قدمه الشاعر في نصه بين المكون النحوي التركيبي والمكون البلاغي خاضع لنشاط الشاعر النفسي، ورغباته الملحة، وتمكنه من ناحية الإبداع التي أفرزت سياقات تعبيرية ذات مسار متكامل من حيث المقصود الدلالي، والبعد التواصلية للنص، فجاء النص ذات صوغ مطواع وتكتيك عالي وإتقان محوري للفكرة التي أفرزت مواجهة حتمية مع المجتمع والواقع المعاش.

فالتشكيل المعماري لمفهوم الخطاب الشعري الذي جاء به الشاعر كان حضارياً وذو قيمة نظرية نقدية، وأسلوب صياغة يبقى محط نظر للقارئ والباحث على حدٍ سواء . وقال أيضاً في الخمر، وما فرضه الإسلام من تحريم على تعاطيه:-

و حال من دونها الإسلام والحرَجُ	إن كانت الخمر قد عزت وقد مُنعتُ
صرفاً واطرب أحياناً فامتزجُ	فقد أباكرها ريباً وأشربها
فيها إذا رفعت من صوتها غنجُ	وقد تقوم على رأسي مغنية
كما يطن ذباب الروضة الهزجُ (1)	فتخفض الصوت أحياناً وتخفضهُ

يخبرنا الشاعر من خلال مقطعته، إنَّ الخمر قد تقل وتمنع من التداول في المحال والأسواق لتعاليم الإسلام، ويصبح من يتعامل بها في حرج أمام المجتمع ونبذ من أفرادهِ.

فهو لا يبالي بكل ذلك، ويأخذ في شربها باكراً، وتكون عند ذاك حرفه، وإن وصل حد الطرب مزجها بالماء، حتى لا يداخله السكر، في جو غنائي، تؤدي فيه المغنية

(1) ديوان أبي محجن النقي: ص 41-42.

بصوتها المثير المميز أغنية تُعرفُ ضوابط إيقاعاتها فهي تارة ترفع صوتها، وتارة أخرى تخفضه، وكأنه طنين ذباب وهو تشبيه غير مناسب جاء في نهاية مقطعه.

أسلوبه مثل اندماج لتحدي السلطة، وإطلاق لرغباته من عنانها بصورة مبتكرة، جريء، معاصر لزمانه، فائق التائق، لولا التشبيه الأخير.

فألفاظه تخبرنا بأنه ليس من عشاق الخمر على وجه التحديد، بل فكرة فرض ضوابط وقوانين عليه، وهو رجلٌ حرٌّ في داخله وظاهره وهذا ما يفسره سلوكه، أمر يثير اهتمامه ويستغزه لتحدي ضوابط المجتمع، وكأنه مراهق لا يأبى لأمرٍ غير ما يصدر عن ذاته، وربما تحديه للسلطة لم يكن جدياً في بادئ الأمر وما أفرزته الأحداث من أمور بشكل عفوي - معاقبته من قبل الخليفة عمر بن الخطاب (رض) وعلناً أمام الجمهور هزه - عزز من شغفه بالخمر والجهر بشربها تحدياً لسلطة الخليفة فهو - الشاعر - لم يسع ليكون علامة فارقة في عالم تعاطي الخمر، بقدر ما أراد أن يكون علامة فارقة في عالم الحرية والرجولة وبشكل تلقائي عفوي؛ لأنه في حقيقة الأمر هو شخص مجبول على الشجاعة والشهامة والصخب في إطلالة الوجود الإنساني، وخاصة في الحرب، ولم تكن إطلالته رياءً وزينةً وإنما شغف حقيقي ينبع من سويداء القلب نفسه.

فهناك الكثير الطيب من حيثيات وجوده فلماذا يكون التركيز على شرب الخمر ولفت النظر لهذا السلوك فقط؟ لذا جعل منه - شرب الخمر - بوقاً مدوياً لتحدي سلطة القانون والدين، باعتباره - أي شرب الخمر - سلوك شخصي بحت من وجهة نظره.

فمقطوعته تنطوي على الفن والهندسة الصياغية المميزة بالإضافة الى شغف الحضور من خلال تحدي السلطة فجاء بمقطوعة تنطوي على الإبداع والتائق الفني.

ولعل أبياته الآتية تؤكد ما ذهب اليه إذ قال:-

ألا سقني يا صاح خمراً فإنني
بما أنزل الرحمن في الخمر عالم
وجذ لي بها صِرفاً لأزداد مائماً
ففي شربها صِرفاً تَتَمُّ المائِم
هي النارُ إلا أنني نلتُ لذةً
وقصَّيتُ أوطاري وإن لام لائِم⁽¹⁾

(1) ديوان أبي محجن الثقفي: ص 37.

وفي حوار لشاعرنا مع القائد سعد بن ابي وقاص، عقب واقعة القادسية، يؤكد وجهة نظرنا في الأمر، إذ قال سعد لأبي محجن بعد سؤاله أمراته عنه:- "والله لأعاقبك على الخمر أبداً. فقال:- وأنا والله لا أشربها أبداً، إنما كنتُ أشربها إذ كنتم تُطهروني"⁽¹⁾. وقال شاعرنا في ذلك:-

ألم ترني ودعت ما كنتُ أشربُ
وكنت أروي هامتي من عقارها
فلما دروا عني الحدود تركتها
وقال لي الندمان لما تركتها
وقالوا عجبُ تركك اليوم قهوةً
سأتركها لله ثم أذهما
من الخمر إذ رأسي لك الخير أشيبُ
إذ الحد مأخوذ وإذ أنا أضربُ
وأضمرت فيها الخير والخير يطلبُ
أأجيدُ هذا منك أم أنت تلعبُ
كأني مجنون وجليدي أجربُ
وأهجرها في بيتها حيث تشربُ⁽²⁾

من هنا مثل شربه الخمر صراع جنوني من وجهة النظر الموضوعية، ولكنه صراع نفسي وطاقة في حالة غليان لا يمكن كبتها بالمدِّ والزجر أمام الملام من أجل سيادة الضبط والقانون في المجتمع على حساب شخصه من وجهة نظره.

فروحه المزمجرة الثائرة، فرضت نفسها على المتلقي على الرغم من مرور الأيام والسنين، فما كان إلا أن يتصدى لتلك البودقة البركانية في نفسه وينفثها شعراً درامياً. فلا دراما بلا صراع، وكان صراع شاعرنا مع السلطة وما تفرضه من عقوبة على سلوكه والذي يراه أمراً شخصياً بحت، ولا يحق للسلطة التدخل في خصوصياته، وحيث ان الصراع لا بد أن ينشأ من نقطة، فإنه يتحتم ان تسبق هذه النقطة مقدمات، فكانت صراعه مع السلطة من جانب وتمسكه بشرب الخمر من جانب آخر، مقدمة ومعادلة صراع جامع أثمرت خمرياته الرائعة والتي حملت اشكالاً فلسفية وموضوعات كبرى متعددة الدلالات، فكانت محركاً لتعدد وجهات النظر في سيرة الشاعر، ونتاجه الشعري على حدٍ سواء.

(1) المصدر نفسه: ص40.

(2) المصدر السابق نفسه، ص40-41.

ثالثاً: ترصيع الأبيات الشعرية بألفاظ قرآنية

رصدنا في بعض مقطعات ديوان أبي محجن الثقفي، وعلى الرغم من قلة ابیات هذه المقطعات ألفاظاً قرآنية واضحة، وهذا يدل على إنه رجلٌ أعاد النظر أكثر من مرة في النص القرآني. وهذا ما يؤكد رأينا من إنه تعاطى مع الخمر تعاطياً شعرياً أكثر منه واقعياً. ونجد ذلك في قوله

قد يعلمُ الناسُ أنا من سراتهمُ إذا سما بصرُ الزعديدة الفَرِقِ⁽¹⁾

فالتركيب اللفظي (سما البصر)، وهو إن يشخص بصر المرء من الفزع والخوف، مبهوتاً لا حراك فيه قد أخذ من قوله تعالى في سورة إبراهيم (آية 42): {اليوم تشخص فيه الأبصار}. ونجد ذلك أيضاً في قوله:-

قد يُقْتَرِ المرءُ يوماً وهو ذو حَسَبٍ وقد يُتُوبُ سواهُ العاجِزِ الحَمِيقِ⁽²⁾

فلفظة يثوب، تعني النهوض والتجمع والكثرة حوله، وهي مأخوذة من قوله تعالى في سورة البقرة (آية 125): {وإذا جعلنا البيت ماثباً للناس}. وأيضاً قوله:-

وقد أجودُ ومالي بذِي فَنَعٍ وقد أكرُّ وراءَ المُجَمَّرِ البَرِيقِ⁽³⁾

تركيبة الجملة (المجمر البرق) والذي يقصد بها ضيق الأمر أو الشيء على المرء، وهنا الضيق والشدة في الحرب، وإما البرق فهي بمعنى الشاخص البصر لأمرٍ جلل، أو لحيرة المرء في أمرٍ ما، وهي تركيبة أخذت عن قوله تعالى في سورة القيامة (آية 7): {فإذا برقَ البصرُ}. وقوله أيضاً:-

وأهجرُ الفعلَ ذا حُوبٍ ومنقصةٍ وأتركُ القولُ يُذَنِّبني من الرَهَقِ⁽⁴⁾

(1) ديوان الشاعر: ص 16.

(2) ديوان الشاعر: ص 20.

(3) ديوان أبي محجن الثقفي: ص 21.

(4) ديوان أبي محجن الثقفي، ص 22.

لفظة (الحب) في هذا البيت مأخوذة عن قوله عز وجل في سورة النساء (آية 2): {إنه كان حُوباً كبيراً}، وهي بمعنى الإثم.
وقال:-

أَغشى الصياح وتغشاني مضاعفةً من الحديد إذا ما بعضهم حَنَساً⁽¹⁾

هنا لفظة (حَنَساً) مأخوذة عن قوله تعالى في سورة التكوير (آية 15):- {فلا أقسم بالْحَنَسِ}. وقصد بها الشاعر في بيته المتقدم تأخر الرجل وتباطئه عمّا في رقبته من مسؤولية.
وقال في ذات الإطار:-

وكيف وقد أعطيتُ ربي موثقاً أعودُ لها، والله ذو العرشِ شاهدي
سأتركها مذمومةً لا أدوقُها وإن رَغِمْتُ فيها أنوفُ حواسدي⁽²⁾

لفظة (رَغِمْتُ) في البيت الثاني مأخوذة عن قوله تعالى في سورة النساء (آية 100):- {مُرَاعِماً كثيراً وسعةً}. وهي بمعنى رغم أنه إذا دُل وسقط في عيون الناس.
لقد قدم الشاعر في أبيات هذا المحور صور تشكيلية متأقّة، عبّرت عن ذاته المبدعة من خلال إنتاج صور حسية واستعمال لغة تصويرية كان لها الأثر في تحديد طبيعة الشاعر الحساسة وعلاقتها بروعة خياله وحسن استثمار هذا الخيال في النص من جهة وعلاقته بمشكلاته الاجتماعية وما يتعلق بالفهم الخاطيء لشخصه من جهة أخرى.
وتكمن في أبياته قوة الشخصية المبتكرة وملاءمتها لصنعتة الشعرية التي هي في حالة تألق من حيث الفروسية والشجاعة، وفي الوقت نفسه هي بين حالة مد لنصرة الخمر وشرب الخمر مرة، ومد التوبة عنها ونبذها ونبذ من يتعاطها مرة أخرى.
فقدرته الشعرية تتجسد في تعبيراته العاطفية الصادقة وقوة سبكه، الذي يتمتع بضياء الجمال الخلاق والإبداع الذي يُشار إليه بالبنان، فليس بالغريب أن يستدعي خياله الفاظاً وصوراً من القرآن الكريم، وهو الشاعر المُبدع المؤثر في واقعه.

(1) المصدر نفسه: ص26.

(2) المصدر نفسه، ص36.

الخلاصة:

لقد حاولنا من خلال هذا البحث إزالة اللبس الذي صبغ سيرة شاعر مجيد وفارس مغوار، ليكون دفاعاً موضوعياً عن رؤيا الشاعر في مفردات حياته، وإضاءة لما قدمه من إبداع شعري مميز، وقدرة تعبيرية متألفة في عالم الشعر الإسلامي الذي تميز بمحدودية أغراضه، ومحاولة تأطير إبداع الشاعر وما يتوافق والدين الإسلامي الحنيف، مما يحذ من تألق الصنعة الشعرية، ويضعف قدرة الشاعر الإبداعية.

لكن الشاعر أبو محجن الثقفي خرق قيود المجتمع وتقاليده، فجعل من اللغة عبيراً مُشاعراً يتنفسه الجميع بعذوبة وطرب، فبنى بها أفكاره بطريقة هندسية مبتكرة وبإيماءات دالة، لأن لغته كانت لغة الخيال والانفعالات النفسية الموحية والتي خرجت بصورة ملونة وبإيقاعات موسيقية مدوية، فدفع بإجاداته لهذه الصنعة النص الشعري نحو قمة الفن الرفيع، وحول بتمكنه اللفظة وعلاقاتها المجازية والدلالية والتركيبية الى صور فنية تتعادل فيها الحقيقة والمجاز، وخرج باللغة الى محيطها الفني الواسع.

فلقد عبّر عن أفكاره ومشاعره ورفضه لفرض السلطة على سلوكه بمعايير خياله المتفجر بصورة مستمرة، فخياله مثل قوة تركيبية سحرية فرضت وجودها على النص، وعلى المتلقي في آن واحد.

وهذا لا يتأتى إلا لصاحب الخيال المبدع، لأن الخيال بطبيعته "يكشف لنا عن ذاته في خلق التوازن أو التوافق بين الصفات المتضادة أو المتعارضة.. بين الإحساس بالجدّة والرؤية المباشرة والموضوعات القديمة المألوفة، بين حالة غير عادية من الانفعال ودرجة عالية من النظام، بين الحكم المتيقظ أبداً وخبث النفس المتواصل والحماس البالغ والانفعال العميق"⁽¹⁾.

فالشاعر صور تجربته التي خاضها مع السلطة وما ساد في المجتمع من ضوابط وتعاليم إسلامية عن طريق الخيال الذي "يحملنا على التأثير لتجربته ومعايشة

(1) مبادئ النقد الأدبي: 1010. وتشاريز، ص312.

أحاسيسه دون الوقوف منها موقف المتفرج، فوظيفة الشعر ما هي الا أن يكسبنا قوة الخيال التي نتصور بها التجارب ذات المغزى العميق"⁽¹⁾.

لذا جاء البعد الاستعمالي لألفاظه وتراكيبه مثيراً وداعياً للإقناع فدلالاته جاءت من منظار مقامي مقاصدي، وبلغ حد التكامل في عملية الكشف عن فلسفته الإنسانية من خلال أنساق معينة في المكون البنائي، وكانت موسيقاه في النص موحية مؤدية بصورة مؤثرة في المتلقي. وظهرت أهميتها في إبراز وكشف الدلالات والمقاصد في النص.

فكانت عنايته واضحة في لغة خطابية تواصلية جميلة، ونتاجه شاهد على نشاطه وإبداعه وتألقه في عالم أدبي محدود لذا كان لا بد لنا من دراسة ألفاظه وسياقاته التعبير لأنها فرضت وجودها في عالم الشعر والإبداع.

ونرجو أننا قد أنصفنا هذا الشاعر الكبير، وقمنا بواجبنا اتجاهه واتجاه أدبنا العربي العظيم.

References:

- Aleskry, Diwan 'Abi Mahjin AlThuqafii, dar alkitaab aljadidi, bayrut - lubnan, 1970, 620 .
- Lasil Karihibi, Qawaeid AlNaqd Al'Adbi, Tarjamatu: Muhamad Eawad Muhamad, dar sadir, birut, 2010 , 230

(1) قواعد النقد الأدبي: لاسل كرحبي، ترجمة: محمد عوض محمد، ص63.

The creative expression between the fallouts of alcohol and the narcissism of heroism and pride in poetry of Abi Muhjn Al-thaqafi

Dailam Kadhim Sahal*

Malathion Natiq Alwan**

Abstract

Abo- Muhajin Al-thaqfi walked the path of creativity and loud his voice saw a sharp of collision for the unity of humanity and promote the principles of islam , his poetry come in that era artistic work.

The privacy brought together equestrian and redemption for religion and the homeland , and the inviolation of the shara through the wine abuse and to explain it.

From here he made his poetry a giant library paradox indivinity poetry and courage the languages characterized by .

Key words : Adoration؛ gentle؛ sensation

* Prof. Asst. / Baghdad University

** Prof. Asst. / Al-Iraqiya University